

ابن تيمية .. والنصوة

تأليف
الدكتور مصطفى حاسم
استاذ مساعد بدار العلوم بجامعة القاهرة

دار الدعوة
للطبوع والنشر والتوزيع
2 شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد ..
فهذا موضوع الكتاب عن موقف شيخ الاسلام ابن تيمية وربما يسأل
سائل : ما الدافع لاختيارنا لمبحث التصوف وقد امتلأت أرفف المكتبات
بعشرات أو مئات من الكتب في نفس الغرض ؟

ولكننا نجمل الاجابة بدورنا فنوضح ان من الاسباب ما يتصل بظروف
العصر الذى نعيش فيه ، أو ما يتعلق بطريقة شيخ الاسلام فى تشخيص
الادواء ووضع العلاج لها بطريقة خاصة ، حاسمة ، فيغنيننا باجتهاداته عن
قراءة مؤلفات غيره .

ومن الناحية الاولى ، فاننا نجتاز أياما تكاد تتطابق فى ملامحها مع
أيامه ، فها هى القوى الخارجية العدائية تتكالب على العالم الاسلامى بقوة
وضراوة ، ففتحات الاراضى غزوا واحتلالا ، وتقتحم العقول والنفوس
بمذاهب ونظريات وأنظمة شتى لتخرج المسلمين من عز الاسلام ومنعته
الى ذل الانظمة الواردة من الشرق والغرب ، ولكن الله عز وجل قبض لهذا
الدين ما يحفظه كما ورد فى السنن (ان الله يبعث لهذه الامة فى رأس كل مائة
سنة من يجدد لها دينها) (١) .

ونزعم ان ابن تيمية منهم . واذا كانت نداءاته المدوية قد خفت حسب
طبيعة المشاكل المثارة فى عصره وانقضت بانقضائه — ومنها المسائل الكلامية
أو مباحث الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو طاليس — فقد بقيت نظرتة
للتصوف جديدة كل الجدة ، تصلح فى زماننا للتسلح بها فى مواجهة مروجى

(ب)

التصوف والمدافعين عنه اذ لو قدمنا آراءه بعد حذف اسمه ، لظن القارىء انها لأحد علماء الاسلام المعاصرين ، اذ ما زال الصوفيون يعيشون بيننا بنفس أفكارهم وطرقهم •

كذلك تظهر جدة أدلته وأصالتها لأنها أدلة قرآنية ، مشفوعة بتفاصيل من السنة ، ومتبوعة بأمثلة كثيرة يستمدّها من حياة المقتفين للآثار من الصحابة والتابعين والسالكين طريق النبوة •

أضف الى ذلك كله اننا في أشد الحاجة للقول المفصل أمام مشاكل أصبحت ملازمة لتاريخ المسلمين المعاصر - ومنها التصوف - لتدعيم وجهة النظر المعارضة بأدلة تفصيلية ، فلا يكفي رفض التصوف ونبذ بلا مناقشة فنحن في حاجة الى مقارعة الحجة بالحجة لا سيما ان الصوفية قد برعوا ولهم تاريخ طويل في لباس التصوف ثوبا اسلاميا قشيبا - ان لم يجعلوا الاسلام في قمته منحصرًا في التصوف وحده •••

انهم برعوا في تلقيف شباب المسلمين الباحثين عن الحق ، فيقعون في شباكهم ، وكثير منهم بلغ درجة عالية من الثقافة والعلم ، ولكنه يحتاج الى قوة جذب أخرى تتساوى في قوة جذب الصوفية وأساليبهم العاطفية المستمدة من الوجدان ، والمغرية بعواطف المحبة والرجاء في الله تعالى •

اننا نرى أن الادلة العقلية وحدها لا تكفي لاشباع النوازع الباحثة عن طمأنينة النفس ويقىن القلب ، وقد جاء الاسلام مخاطبا الانسان في كينونته كلها ، العقلية والعاطفية والنفسية جميعها ، ولذا فان السبيل ازالة هذا التصوف هو تقديم البديل - أى الاسلام في شموله وتكامله - لا في ثوب العقل كما يفعل المتكلمون والفلاسفة ، ولكن بتقديم النماذج في الاشخاص الذين فهموه وطبقوه وساروا على طريق النبوة ، وهذا ما حرصنا على اتباعه كما سيتضح من خطة البحث •

خطبة البحث :

للسبب الآنف ذكره صلة وثيقة بوضع خطة البحث ، اذ كان لابد من التعرض لحياة الاوائل وتأصيل حياة الزهد الاسلامية من منابعها ، وقد عرضنا لبعض الشخصيات مصطحبين اياها في تفاعلها مع الحياة والناس ، ومكابدتها لألوان من التجارب وذلك لكي نقترّب من الحقيقة الحية الى أقصى الامكان ، فليست تراجم هذه الشخصيات في كتب التاريخ والتراجم الابضعة سطور متناثرة ، تحتاج الى منهج تركيبى لتعود اليها الحقيقة نابضة وكأنها تعيش بيننا . واذا قلنا انهم زهادا ، أصبنا الحقيقة ، ولكنها بعض الحقيقة وليست كلها . فقد عرضنا لجانب من جوانب هؤلاء القين استمسكوا بجماليم رسول الله ﷺ وظلوا أمناء على التراث العظيم ، يمدون به أمواج الانحرافات والتغييرات ، ولم ينقطع بعدهم على مر الاعصار من يجدد لهذه الامة دينها ، واضعين نصب أعينهم الحديث العاصم لهم من الزلل (انى تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبعا : كتاب الله وسنتي) .

ولهذا السبب استغرق فصل الزهد عن المسلمين جانبا كبيرا من اهتمامنا للتدليل على سلامة سلوكهم المتوافق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فقد عاشوا طبقا للحياة الاسلامية الصحيحة ، وقلموا بصياغتها على هدى الاسلام .

ولما كان هدفنا الوقوف من التصوف نفس الموقف الذى اتخذه

شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقد رأينا اختطاط المنهج الوسط بين طرفين : أحدهما يؤيد التصوف تأبيدا مطلقا ولا يقبل مناقشته ، والآخر يهدمه من أساسه ويلغظه ويستبعده .

لهذا سنختط طرقنا بحيدة علمية واقتناع بسلامة المنهج المقارن بين
الاصول الاسلامية في ذاتها وبين ألوان الفكر والسلوك المتعددة - أى في
دوائر علم الكلام^(٢) والفلسفة والتصوف .

وفي الحديث عن التصوف فاننا نرى أن أغلب الباحثين المعاصرين
المؤيدين للتصوف الاسلامى يصفونه بأنه الثورة الروحية في الاسلام ، أو
أنه أروع صفحة تتجلى فيها روحانية الاسلام حيث يفسر هذا الدين
تفسيراً عميقاً يشبع العاطفة ويغذى القلب بدلا من التفسير العقلى
للمتكلمين والفلاسفة ، أو التفسير الصورى للفقهاء^(٣) الى غير ذلك من
عبارات تجعله في أعلى درجات الرقى الاخلاقى وتكاد تصل به الى مقام
النبوة الصديقة وما دام بيان منهج البحث ضرورى في أية دراسة - لا سيما
ونحن ازاء موضوع تعددت فيه الابحاث وتراكت ، واختلفت فيه الآراء
والنظريات بين التأييد والمعارضة ، فاننا نرى انه من الضرورى القاء نظرة
عامة على هذه الدراسات التى تكاد تنحصر في تيارات ثلاثة :

أولها : كتابات المؤيدين للتصوف والمدافعين عنه كالكلاباذى والسلمى
والقشيري والمكى والغزالى والمهجويرى والمهدى والجيلانى وغيرهم^(٤) .

الثانى : المعارضون للتصوف من أغلب الفقهاء والمتكلمين طوال
العصور ، وربما يمثله اتجاه ابن الجوزى . وهذا الاتجاه قد لا يسلم من
التميز ويفتقد النظرة العلمية الصحيحة ، الى جانب تأثره الشديد بشيخه
ابن عقيل الذى كان يرى في الصوفية ، اما أهواء متبعة أو رهبانية مبتدعة .

(٢) الترامنا بنفس المنهج بكتابنا (منهج علماء الحديث والسنة في
اصول الدين « علم الكلام » ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤٠٢ هـ -

١٩٨٢م

(٣) د. ابو العلا عفيفى - التصوف الثورة الروحية في الاسلام ص ٦

(٤) انظر ص ٢٧٦ من الكتاب .

وكان يدعو المسلمين الى عبادة الله عز وجل وفق العقل والشرع دون المظاهر التي حرص الصوفية على اتباعها من اهمال الحقوق وترك الاولاد والالتجاء الى زوايا المساجد^(٥) .

وكان الشافعي يحمل بقوة على التصوف والصوفية قال (التصوف مبنى على الكسل ، ولو تصوف رجل أول النهار لم يأت الظهر الا وهو أحرق)^(٦) .

الثالث : الموقف الوسيط ويعبر عنه أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن خلدون اذ يؤيدون الاتجاهات الصوفية المطابقة للكتاب والسنة ، ويعارضون بشدة مذاهب التصوف الفلسفي عند الحلاج والسهورودي المقتول وابن عربي ومن سلك مسلكهم ويرى ابن تيمية ان هؤلاء الذين يأخذون بناحية الروح وحدها أخطأوا ، وهو نفس الخطأ الذي يقع فيه من يغلب الجانب المادى فان انسلاخ أحدهما عن الآخر يصبح نوعا من البدع لأن الاسلام يدعو للعمل لصلاح المجتمع الانساني ، كما يحرص على التذكير بالحياة الابدية بعد الموت ، ولهذا فلا بد أن يلتحم جانب الصدق والاخلاص مع عمل الجوارح الظاهرة ، بل يذهب الى أن كل عمل ينطوي على الرغبة في ارضاء الله سبحانه وتعالى والاخلاص له يعد عبادة ويقول (ثم ان الدنيا تخدم الدين)^(٧) مؤكدا عمومية مبدأ الربط بين ارادة المال والشرف ، وبين حقيقة الايمان وكمال الدين فهذا هو الصراط المستقيم (صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) .

(٥) ابن الجوزى — تلبيس ابليس ص ٣٦١

(٦) ن.م ص ١٥٩ وصفة الصفوة ج١ ص ٤

(٧) ابن تيمية — السياسة الشرعية ص ١٧٩

ويعتمد أصحاب هذا المنهج على المقارنة بين تعاليم الاسلام الاصلية في مصدرها : الكتاب والسنة وبين المواقف المختلفة للصوفية .
وعبارة ابن خلدون الآتية توضح لنا معارضته للغلو في اتباع المشايخ واحاطتهم بهالات القدسية (وليس ثناء أحد على هؤلاء حجة - وهو يقصد ابن عربي وابن سبعين واتباعهما من صوفية وحدة الوجود - ولو بلغ المثني ما عسى أن يبلغ من الفضل ، لأن الكتاب والسنة أبلغ فضلا وشهادة من كل أحد) (٨) .

على أن القاعدة التي تقررها النصوص من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية توضح أن الاساس في الافضلية من حيث العصور الماضية هو العصر الذي ظهر فيه رسول الله ﷺ (فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء ، أو طريق أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ضال مبتدع) (٩) .

وهذه القاعدة على طرف النقيض من آراء المستشرقين ومن أتبع منهم متخذين من نظرية (التطور) سبيلا ومنهاجا ، فجعلوا المتأخرين أفضل من السابقين .

وأيد الرسول ﷺ أفضلية الصحابة على من تلاهم من أهل القرون التالية ، فقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) (١٠) .

(٨) ابن خلدون - شفاء السائل لتهديب المسائل ص ١١٠

(٩) ابن تيمية - الصوفية والفقراء ص ٢٣

(١٠) ابن تيمية - النبوات ص ١٦١

(ز)

ونفهم من دراستنا لسيرهم أنهم قاربوا حد الكمال في فهمهم للإسلام عقيدة وسلوكا وعبادات كما سنرى ، وقد قال تعالى في وصفهم (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) التوبة - ١٠٠ ، والصيغة الجامعة الآتية توضح ذلك : (فان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل الى الله ما كان عليه هو وأصحابه) (١١) وذلك تفسيراً للآية السالفة الذكر اذ يرى فيها ابن تيمية أنها تبين أن الله سبحانه وتعالى قد رضى عن السابقين مطلقاً ورضى عن اتبعهم باحسان (وذلك متناول لكل من اتبعهم الى يوم القيامة كما ذكر ذلك أهل العلم) (١٢) .

وكما يحدث عند التقاء الحضارات بعضها ببعض ، فقد التقى المسلمون بالفرس والروم والهند واليونان فنقلوا تراث هذه الحضارات وتأثروا بها وأثروا فيها ، اذ انه في نزاع الحضارات القائم في جوهره على نزاع أفكار وآراء ومعتقدات كان لابد أن يحدث بين المسلمين وبين الامم الاخرى أخذ وعطاء .

وفي القرون الثلاثة الاولى كان الغالب على المسلمين الاستمباتك بمنهجهم الاسلامى الاصلى أى تعاليم الكتاب والسنة ، وكانا عاصمين لهم من الخطأ والشطط .

وبمرور الزمن ، ضعف البعض في الاخذ بهذا المنهاج ، واقتقد هذا الركن المكين ، فنتشعبت بالمسلمين المسالك واختلفت بهم الطرق .

(١١) ابن تيمية - الصوفية والفقراء ص ٢٢

(١٢) ابن تيمية - النبوات ص ١٦١

(ح)

ولعل أهم النتائج المترتبة على هجر هذا المنهاج هو انه بعد أن كان الاوائل يفهمون الاسلام في دائرته الكلية الشاملة - أى بعباداته ومعاملاته وأخلاقه - فقد انفرط هذا العقد على يد المسلمين فيما بعد ، وانقسموا فيما بينهم ، فأصبح الاتجاه العقلى الفلسفى والكلامى فى جانب ، والاتجاه العاطفى الوجدانى فى جانب ، والفقهى فى جانب .

أما كيف حدث هذا ؟ فهو موضوع بحثنا ، فنبدأ من موقف ابن تيمية الذى أرخ للتصوف منذ بدء ظهوره وما آلت اليه أحواله .

ان دعاة التصوف ومؤيديه يرون أنه الوسيلة لمحاربة مادية العصر الحاضر ويقول خصومه ان الانسان لا يستطيع الاستغناء عن الجانب المادى لأنه جانب هام فى تكوين الانسان يعجز عن الانفلات منه ، ثم ان الاسلام جاء مقررا لهذه الحقيقة ، مناديا بالمنهاج الوسط بين اشباع الجسد واثباع الروح قال تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير) آل عمران - ١٤

كما انه فى الوقت نفسه رفض الرهبانية ونهى عن اتخاذها سبيلا فى الحياة (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) الحديد - ٢٧ .

ان الموقف الاسلامى الصحيح يشجع الانسان على الاستجابة لما ركب فيه من تطلع الى الانطلاق من قيد الغرائز والترفع على الضرورة ، ولكن بشرط ألا ينزع نفسه من الارض والا انتفى الغرض من وجوده عليها وخوض التجربة الابتدائية كاملة قال تعالى (ولا تنسى نصيبك من الدنيا) القصص - ٧٧ .

وسنحاول باتباعنا المنهج الاستردادى أن نتخذ من السلف بداية

لدراسة أحوال المسلمين في العصور الأولى عبادة وسلوكا ، وكيف هبت رياح التغيير فألقت بالبعض بعيدا عن الأصول الإسلامية •

ولا ينبغي أيضا اغفال محاولات المستشرقين التي لم تسلم من الأخطاء ، ويرجع الخطأ في تفسيراتهم وتحليلاتهم الى قصور في ادراك طبيعة الحياة الإسلامية لافتقادهم للعنصر الروحي لسيطرة الفلسفات المادية الغربية عليهم • كما تدور أفكارهم مع التقسيمات التقليدية للأفكار الدينية تبعا لعقائدهم ، وبينها وبين الإسلام بون شاسع واختلاف كبير •
انهم في نظرتهم الى الإسلام صبغوه بعقائدهم الأصلية وأصفوا عليه انطباعاتهم الغربية ونظروا اليه بمنظار الحضارة الغربية •

لهذا كله لم تخل كتاباتهم من أخطاء جوهرية يستخلصها المسلم بفطرته لأنه يستدل بفهمه للإسلام على تعسفهم في التفسير والتعليل فالإسلام نظام عقدي يصعب على الباحث ذو العقلية الغربية التركيب الارتفاع الى مستواه • والامثلة كثيرة سنعرض لها في الصفحات القادمة •
أما عن الفكرة التطورية الرائجة عندهم فان موقفنا منها قد يحتاج الى توضيح • فهناك فرق بين التطور المحمود في مجالات العلوم وال عمران للتشجيع على جهود الانسان في اكتشاف ما نمحص عليه من القوانين التي مكنته من الوصول الى القمر • ولكن لفظ التطور الذي نعارضه هو المرادف في مدلوله للتقدم المزعوم في ميدان الاخلاق والسلوك ، فان هدفه القضاء على المثل العليا ، ومغزاه الحقيقي محاربة الفضائل التي نص عليها الدين كالصدق والوفاء والعدل - وهي التي ستظل ثابتة مهما تقادم الزمن • يقول محمد أسد وهو ربيب الحضارة الغربية العليم ببواطنها وأسرارها (ولكي نصل الى احياء إسلامي فاننا لا نحتاج الى أن نبحث عن مبادئ جديدة في

السلوك نأتى بها من الخارج — وهو يقصد أوروبا — اننا نحتاج فقط الى أن نرجع الى تلك المبادئ القديمة المهجورة فنطبقها من جديد (١٣) .

وبعد هذه المقدمة نترك القارئ الكريم لتابعة نقد شيخ الاسلام ابن تيمية للتصوف الذى انحرف انحرافا جليا عن الاصول الاسلامية لا سيما عند الحلاج وابن عربى . ولكنه كان يتخذ موقفا وسطا من الغزالي الى جانب مدحه لشيخوخ العلم والايمان فى القرون الاولى .

وقد بحث الشيخ تاريخيا وموضوعيا كيف بدأ ظهور الزهد فى صفوف المسلمين وكيف اهتم البعض منهم بالحديث عن الوجدانيات من الخطرات والوساوس ، وكان فى بدايته ذو طابع اسلامى لا سيما عند أهل الحديث والسنة ولكنهم — أى السلف — لم يعرفوا اصطلاحات الصوفية ولم يستخدموها وانما ترنموا بالقرآن وغاصوا فى معانيه ، الى جانب الحديث حيث أولوه اهتمامهم يتلقونه ويسجلونه ويحفظونه ويبحثون فى سنده ومثته فأخرجت المدرسة السلفية فى عصورها الاولى أعلاما كبارا ، لم يكونوا محدثين أو زهادا أو فقهاء أو مفسرين فحسب ، بل جمعوا بين هذه الاهتمامات أو أغلبها ، لأن أفكارهم انبثقت من المصادر الاسلامية المنثورة . وفى مقابل هذا الخط الاسلامى الاصيل ، كان فى الطرف الآخر اتجاه آخر مخالف أخذ يتكون من ارهاصات روح غير اسلامية ، أخذوا فى التلون والتشكل من كافة الثقافات والاتجاهات ويتطور باختلاف البيئات والعصور حتى أنتج تصوفا فلسفيا لا صلة له بالمصادر الاسلامية الحقيقية .

ان هذه الحقيقة تبدو واضحة أشد الوضوح اذا عقدنا مقارنة بين تراث الزهاد الاوائل وبين مذاهب الصوفية المتفلسفة ، اذ اننا نلاحظ بغير

عناء وفي لمحة سريعة لا يكاد يخطيء فيها الباحث • من هذه المقارنة نرى
تمسك أولئك بالكتاب والسنة ، فما من صفحة من مؤلفاتهم الا ويقدمون
فيها الاصل واضحا معلنا ، ونعنى به الاسلام في دائرته الكبرى - دائرة
الكتاب والسنة - بارزا يكاد يخفى كاتبه بين الآيات والاحاديث لأن مهمته
اظهارها وتفسيرها وبيان معناها •

أما الطرف الثانى - فالمذاهب الفلسفية هي السائدة ، تفوح منها
رائحة الغنوصية تارة والهندية تارة أخرى والمسيحية في بعض اتجاهاتها ،
وإذا التقينا بنصوص اسلامية فهي مبتورة ملتوية المعنى من فرط اختفائها
وراء التأويل •

وتطبيقا للمنهج الذى خطه لنا أستاذنا الدكتور النشار اذ يرى أن
الزهد نشأ في المجتمع الاسلامى (كما ينشأ في كل مجتمع آخر - تحت
تأثير عوامل نفسية دينية وسياسية واقتصادية ونبعث هذه الظاهرة في
بيئتها نفسها ونتجه الى أصولها النظرية في ماخذها الحقيقية كل ظاهرة في
مجتمع من المجتمعات انما تسند حقيقتها من هذا المجتمع وتتطور في نطاقه
ثم تأتى العوامل الخارجية بلا شك) ، نقول ان هذا ما حدث تماما بالنسبة
للتصوف في كافة صوره السننية منها والفاسفية بل السلفية أيضا ، ومرد
ذلك الى أن شيوخ الصوفية سمحوا للتيارات الخارجية أن تطغى على
مذاهبهم أى بدأوا بالتأثر بروح العصور المختلفة ثم حاولوا ايجاد الاساس
من الكتاب والسنة ، فحدث الخلط •

ولعل الامثلة التى سقناها فيما مضى من بحثنا دليل على صحة
ما نذهب اليه • فان الغزالي تشرب بثقافة العصر ثم وقع اختياره على
التصوف ثم تنبه الى أهمية الحديث في أواخر حياته • وجاء ابن عربى

فتلقف التصوف ودعمه بالفلسفة ثم حاول تأويل النصوص لكي تحقق ما يهدف اليه من اثبات وحدة الوجود •

أما الموقف السلفي في العصر الحديث فله بحث خاص منفصل ، يمكن للقارئ الكريم الاطلاع عليه بكتابنا (التصوف والمنهج السلفي في العصر الحديث) •

والتزامنا بهذا المنهج فقد قسمنا البحث الى أربعة فصول :
ففي الفصل الاول تكلمنا عن :

المدرسة السلفية والتصوف

وفي الثاني تناولنا موضوع

الزهاد الاوائل

من عصر الصحابة ثم مدرسة المدينة ومكة والكوفة والبصرة ومدرسة الشام وبغداد وخراسان ثم اليمن •
وتطرقنا في الفصل الثالث للحديث عن :

موقف ابن تيمية من النظريات الصوفية

من نظرية الحلول ومن التصوف الفلسفي ومذهب وحدة الوجود •
وكان موضوع الفصل الرابع :

الاتجاهات الروحية عند ابن ابي عمير

ولا يفوتنا في الختام تقديم جزيل الشكر لكل من عاون في اخراج هذا الكتاب ، ونسأل الله لهم جميعا أن يجزيهم عنا خير الجزاء •
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه الى يوم الدين •

مصطفى حامى